روسيا

على مفترق الطرق

مضت سنة ونصف سنة وروسيا السوفيتية تعاني ازمة داخلية شديدة ، بدا بعض مظهرها في محاكمة اقطاب الثورة البولشفية وفريق من اكبر قواد الجيش واعدامهم ، وما لازم تلك المحاكمة ، من اعتراف المحاكين اعترافاً ليس فيه اثر من الرجولة بل كل اثر من الضعف والتخاذل ، وما كشف عنهُ التحقيق من تهم بالخيانة والتدبير موجهة الى الرؤساء في اعلى دوائر الحكومة ، وما تبعها من فقد روسيا جانباً كبيراً من الثقة التي احرزتها في العهد الاخير في اوربا واميركا ولا سيما بعد اعتراف حكومة الولايات المتحدة الاميركية بها وانتظامها في جامعة الامم في خريف سنة ١٩٣٤

فهل ستالين دكتاتور روسيا مصاب بجنون الاضطهاد ؟ ألمّ تفض الحوادث الاخيرة الى زعزعة الاركان التي يقوم عليها النظام السوفيتي ؟ وهل من المحتمل ان يبقى ظل حكمه الدكتاتوري مبسوطاً على روسيا ؟

لنصرف النظر عن السؤال الاول . فليس في ما يعرف عن اعمال ستالين وحالته ما يكفي لتناول ذهنه وحالته النفسية بالتحليل البكولوجي والطبي الجدي . ثم ان التباس الملل النفسية للتطوّرات السياسية المعقدة ، قد يضلّ الباحث عن طريق الصواب حتى في البلدان التي تحكم حكماً دكتاتورياً

الاّ ان السؤال الثاني ، يرمي الى تبيُّن اثر الحوادث الاخيرة في مكانة ستالين وهل عزّزتها او زعزعت من اركانها ؟ ويقول باحث مفكر في مجلة الكونتمبوراري وعنهُ تنقل — ان الردّ على هذا السؤال لا يمكن ان يكون ايجاباً صرفاً ولا سلباً بحتاً . ذلك انهُ اذا نظرنا الى ستالين على انهُ زعيم الشيوعية ، وقائد الحركة التي ترمي الى احداث الثورة العالمية ، فلا ريب في انهُ قد فقد جانباً كبيراً من سلطته وقوته وثقته بنفسه . وهذا يفسّر ما يشاهد في الاحزاب الشيوعية في مختلف البلدان من انقسام وتزاع ، ولذلك غدت موسكو بعدما كانت الى عهد قريب محجة جميع الشيوعيين المستقيمي الرأي في العالم ، وهي غير ما كانت عليه . ولذلك يرى السائر في هايد بارك بلندن خطيبين شيوعيين يخطبان ، احدهما في جوار الآخر ، اولهما تحت علم ستالين والآخر تحت علم تروتسكي واتباعه . ولذلك يصح القول بان التهمة التي يوجّهها تروتسكي في مقالاته وكتبه الى ستالين ، بانهُ خان الثورة الشيوعية العالمية ، لها ما تستند اليه

والواقع ان ستالين اليوم غير ما كان عليه سنة ١٩٣٣ او في السنوات التي تلت وفاة لنين . فبعد ما كان الزعيم الثوري للاشتراكية الدولية اصبح الحاكم بامره لمصالح روسيا القومية

فاذا نظرنا اليه على انهُ الرائد للمرحلة الثانية من الثورة البولشفية التي يصحُّ ان نسميها مرحلة البولشفية الوطنية ، وجدنا انهُ عزّز مقامهُ وأيد سلطتهُ نتيجة للحوادث الجسام التي وقعت في روسيا في العام الماضي . ولعلهُ غير مدرك تماماً هذا التحوّل الداخلي في نفسه . بل لعلهُ لا يزال يعتقد انهُ الامين على ميراث لنين . ولكن الواقع ان ستالين زعيم الثورة العالمية قد انقلب رجلاً آخر هو زعيم البعث القومي في روسيا . فموقفهُ الآن من الوجهة النظرية ، هو الموقف الذي يستخلصهُ الباحث من حديثهِ مع ولز حيث وصف بأنهُ رجل يواجه حقائق الحال وقد اضطرتهُ نزعتهُ هذه الى تعديل خطتهِ وفقاً لتحول الحالة الدولية . اما عمل يعود بعد ذلك الى موقفهِ الاول موقف زعيم الثورة العالمية ، فمن الصعب الحكم فيه وهو غير محتمل على الارجح

ان هذا التحوّل في نفسية ستالين ، وفي تطور روسيا السياسي ، ليس من نتائج المصادفة . بل هما مظهران من مظاهر الخطر الخارجي الذي يحفُّ بروسيا السوفيتية . فقيام الحزب النازي في المانيا ، وأملهُ المعقود على توسع المانيا في شرق اوربا ، قد أثرا في اتجاه الفكر الروسي وسياسة روسيا الداخلية . ثم ان مطامع اليابان في الشرق الاقصى أيدت هذا الاتجاه . وقد كان للحروب الخارجية ، في تاريخ روسيا الحديث ، تأثير كبير في نظامها الداخلي . لذلك قال لنين ان الشيوعيين لا يستطيعون ان يبدلوا في جغرافية روسيا . فانشاء روسيا الحديثة على يدي بطرس الاكبر ، كان نتيجة النزاع الطويل مع ندّه السويدي . والاصلاحات الثورية التي أدخلها على البلاد ، لم تكن وفقاً لبرامج أعدَّهُ للاصلاح ، بل كانت أعمالاً قضت بها الحاجة لمواصلة الحرب . ثم ان حرب القرم أفضت الى الغاء الرقّ الزراعي والحرب الروسية اليابانية الى وضع الدستور ، والحرب العالمية حولت روسيا القيصرية الزراعية المتأخرة في شؤون الصناعة الى الدولة الشيوعية الاولى في ظلّ دكتاتورية العمال

أما اليوم فان مخاطر الحرب التي تهدّد روسيا من الداخل والخارج تؤثر في نشوئها الداخلي قبل وقوعها ، لان الدولة ترى حتماً عليها ان تبذل كل جهد للتأهب لها ولو كان في كل عمل تعمله في هذا السبيل ، ما يناقض برنامج الحزب الشيوعي وخطتهُ

ان نظام الدولة السوفيتية نفسهُ قد بدأ يتغير وفقاً لمقتضيات الحالة الدولية . حتى تحقيق برنامج السنوات الخمس الاول والثاني ، يجيء في المقام الثاني بالقياس الى الاصلاح الدستوري في البلاد . لقد عدّل الدستور الاميركي الذي وضع من قرن ونصف قرن احدى وعشرين مرة . ولكن الدستور السوفيتي الذي أنشيء من اربع عشرة سنة قد نقح كل سنة تقريباً . والمرة الاولى في

السنوات الاربع عشرة الماضية، فسح المجال في الاصلاح الدستوري الذي تمّ في السنة الماضية، لمثل الاحرار والدمقراطيين . وكان ذلك على اثر الخطبة التي خطبها ستالين في ٤ مايو سنة ١٩٣٥ عند ما بيّن قيمة « الشخصية » التي طالما أنكرتها روسيا الشيوعية

ان الحكومة الروسية القائمة ترى انها في اشدّ الحاجة الى توسيع الاساس الاجتماعي الذي تقوم عليه سلطتها رغبةً منها في تعزيز قدرة البلاد على الدفاع . واذن لا بدّ من مسالمة العناصر التي كانت تعاديها قبلاً . ولذلك نصّ الدستور الجديد على أن جميع الروسيين ما عدا المصابين في عقولهم سيمنحون حق الانتخاب عندما يبلغون السنة الثامنة عشرة من العمر . فلا ينظر بعد الآن الى نشأة الرجل او المرأة في بيت من بيوت الاشراف او الارستقراطيين . لان روسيا الجديدة ستضمّ من الوجهة النظرية على الاقل ، « جميع المرابين وجواسيس البوليس » اسوةً بالعمال . ثم إن الخدمة العسكرية والانتظام في الجامعات لن يكونا ميزة مقتصرة على العمال . بل على الضدّ من ذلك اصبح اقطاب الحكومة يصرّحون بان الخدمة العسكرية ، عمل شريف يجب على كل روسي . ومن مظاهر هذا التحول ان فرسان القوزاق الذين كانوا من ألدّ خصوم البولشفية ، قد أعيدت اليهم امتيازاتهم وملابسهم الخاصة . ذلك ان الحكومة تريد أن تضم تحت لوائها جميع القوى في سبيل الدفاع عن « الوطن الروسي » !

إلاّ أن ما تقدم لا يكفي لانهُ يتصل بمظهر الدولة فقط . ولكن العقول والنفوس يجب ان يغير ما بها ، وتعدّ للنهوض بالاعباء التي تواجهها . واذا بحث باحث في الصحافة السوفيتية الآن حملهُ على الدهش ما يراهُ فيها من تبدل في اللغة وأساليب التفكير . فهي تستخرج الآن من دقائق الماضي الفاظاً كانت الثورة البولشفية قد حظرتها . هو ذا كلمة « الوطن » يجب أن تظهر في كل مقال افتتاحي . « والوطنية » صفة تمجد بكل اسلوب من اساليب التمجيد . قالت الاسفستيا في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ :—« الوطن ! ما اعظم ما تنطوي عليه هذه اللفظة البسيطة من المعاني تثيرها في نفس كل روسي . انها تعبر عن أجلّ وأعلى وأنبل شعور يجول في نفس الوطني السوفيتي . محبة المرء لبلاده ، والتباهي بقومه ، والشعور بقوته التي لا تغلب ، والاستعداد للخدمة ، والتضحية بالحياة اذا اقتضى الامر ذلك »

لقد قلّ بل ندر ما يذكر الآن في الصحف عن العمال الروس وانهم روّاد الثورة العالمية . وحلّ محلهُ القول في عظمة الشعب الروسي ومجد مآثره القومية . فالصحافة الروسية ترسخ في اذهان الشعب الروسي المباهاة بتاريخه وادبه وفنه وبعظماء ابنائه . وكتابها يعمدون الى التنقيب في التاريخ الروسي فيستخرجون منهُ صفحات المجد وينشرونها على الناس

حتى الادب الروسي غدا يستعمل وسيلة لنشر الدعوة في سبيل جمع القوى والتأهب

الدفاع . والمؤلفون الروس يُحسنون على معالجة مشكلات الدفاع عن الوطن وتمزيز حبه وروح التضحية في سبيله في نفوس القراء . وقد بُعثت الاناشيد الوطنية الحماسية التي كانت شائعة في العهد القديم ، لانها مرتبطة بكثير من الاساطير التي تمجد ابطال الدفاع عن الوطن في مختلف عصور التاريخ . بل ان النعاية الوطنية في روسيا قد اخذت تتسم بسمة الغلوّ في الوطنية . فالشاعر الروسي لوجوفسكي ، هدّد من عهد قريب بطرده من جماعة المؤلفين الروس لانهُ حاول ان يخرج طبعة جديدة لاشعاره القديمة التي يصف فيها كآبة القرية الروسية وجفاءَ الطبيعة فيها

ثم هناك تعليم التاريخ . وفي هذا الميدان نجد تبدلاً ظاهراً . فقد قال احد الرحالين الانكليز ، انهُ عند ما يزور البلدان الاجنبية يعنى عناية خاصة بمطالعة كتب التاريخ التي تدرّس في المدارس لانهُ يجد فيها أبلغ دليل على اتجاه الفكر في تلك الامة

ولا يخفى ان أقطاب الثورة البولشفية في روسيا عمدوا بعد الثورة الى تغيير كتب التاريخ التي تدرس في المدارس ، فألقوا ستاراً كثيفاً على مكانة « الشخصية » في التاريخ ، مع ان إجلال شخصية لنين حيثما كان قد بلغ مبلغ العبادة . وجعلوا يفسّرون كل حادث تاريخي ، بأنهُ مظهر للنزاع بين الطبقات . ولكن هذه النزعة قد أخذت تتبدل . وغدت كتب بوكروفسكي القائمة على تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً بحسب مذهب ماركس — وهي كتب أثنى عليها لنين ، وطبعت منها ملايين النسخ ووزعت في المدارس — غدت هذه الكتب في نظر الحكومة السوفيتية الآن مناقضة للاسلوب التاريخي السليم . كانت كتب التاريخ تعمد الى تمجيد عهد الوثنية الروسية قبل دخول المسيحية ، ولكن الكتب التي تؤلف وتدرس الآن تشير الى دخول المسيحية البلاد كعامل من عوامل الارتقاء . وبطرس الاكبر الذي كان يوصف بأنهُ طاغية مستبد بالجماهير الروسية ، غدا يوصف حكيماً محبًّا للارتقاء » . والامثلة على هذا التحوّل في كتابة التاريخ وتدريسه كثيرة فاكتفينا منها بما تقدم

هذا السعي الى افراغ حياة الشعب الروسي العقلية ، في قالب النزعة الوطنية القومية ، يصحبهُ سعي آخر الى العودة بالحياة الاجتماعية الى حالة الاجتماع « البورجوازيّ » . فالنزعة الحرّة بادية الاثر في الدستور الجديد ، حيث يعترف بحقوق الانسان على مثال ما بسطت في الدستورين الاميركي والفرنسي

ثم هناك تحوّل عظيم الشأن في النظر الى حياة الاسرة ، يرجى منهُ أن تحوّل روسيا من بلاد « الحب الحرّ » الى بلاد الاسرة المتماسكة . وقد صدرت قوانين متعدّدة غرضها مكافحة الموقف المجرّد عن الشعور بالمسؤولية نحو الاسرة وواجباتها

فالطلاق الذي كان سهلاً جدًّا وضعت في سبيله القيود . وبعدما كان الراغب فيه الى عهد

قريب ، يكتفي بكتابة ورقة يقرر فيها هذه الرغبة ، فيمنح الطلاق ، اضحى كل طلاق جديد يقتضي من طالبه للحصول عليه ، دفع مبلغ اضافي من المال للدولة ، يزيد بزيادة عدد طلبات الطلاق . وكان الاجهاض عملاً شرعياً خلال ست عشرسنة ، اما الآن فهو محرّم لانهُ ضار على ما يقولون ، ومن يحاولهُ او يقم به يعاقبْ عقاباً شديداً . فالامومة اصبحت في هذه النظرة الاجتماعية الجديدة « واجباً عظيماً » والوالدات اللواتي يلدنَ ستة اولاد او اكثر تمنحهنّ الدولة اعانة خاصة على سبيل ما تفعل الحكومات الفاشستية

وما تبيّناه من اثر الاتجاه الجديد في الانظمة السياسية والاجتماعية نجده كذلك في ميدان التعليم والادب . فقد استردّ المعلمون سلطتهم على الطلاب ، وعادت الجامعات توزع الالقاب والرتب العلمية على مستحقيها . وزاد الطلب على مؤلفات الكتاب الروس العظام مما يدلُّ على ان القارىء الروسي قد أخذ ينصرف عن « الادب الاشتراكي » التي وضعت مؤلفاتهُ بامر الدولة ، الى مؤلفات الكتاب والشعراء الروس الذين احرزوا أعلى مكانة في الادب العالمي كبوشكين وتورجنيف وتولستوي وغيرهم

وقد عادت رواية « آنا كارنينا » تأليف تولستوي ، اوسع الروايات انتشاراً بعد رفع الحظر عنها . ولا يقل الطلب كذلك على مؤلفات الشعراء والادباء الاجانب كجوته وبيرون وهيني وبلزاك ، بل إن مسرحيات شكسبير ، تحسب « قمة الدراما الكلاسيكية »

ان حماسة الروس الثورية قد بلغت ، على ما يظهر ، مرتبة الخمود ورقاص الثورة الذي اندفع الى اقصى حدودهِ في ناحية قد أخذ يرتدُّ الى الناحية المقابلة . وهناك آثار إعياء وخمود بادية في جميع مسالك الحياة . فالنزعة الى مواجهة الحقائق اليومية أخذت تحلّ محلّ الحماسة الثورية

وكذلك يمكن ان يقال ان الثورة البولشفية قد بلغت المرتبة التي تلتهم فيها الثورة ابناءها — اي الافكار والمنشآت الثورية — بل ومبدعي تلك الافكار والمنشآت . وليس ذلك بالغريب . فالتحوّل من الثورة والانحراف عن سبيل الشيوعية المستقيم الى مسالك « القومية البولشفية » ، ما كان يمكن ان يتم بغير نزاع عنيف ، عام وخاص . وقد كان شبان الشيوعيين في مقدمة الذين بعثوا بأسئلتهم الى مكاتب الصحف ، لانهم على ما قالوا عاجزون ان يفهموا مغزى الكلام على الثقافة القومية حالة انهم نشأوا ورسخ في اذهانهم تفهم واحترامهم للثقافة الخاصة بالعمال . ثم ان الانصراف عن السعي الى بث الثورة العالمية ، هال بعض اقطابها فاعترضوا عليه . وهذا يفسّر اعدامهم . أن التحول الجديد ، يقتضي ازالة النزعة الثورية من سبيله . وقد أصدر ستالين امرهُ من عهد قريب بفض جماعة البولشفيك القدماء . ومن المفارقات ما يروى الآن ، من ان ستالين وهو مكوّن الحزب الشيوعي ينوي ان يقضي على الحزب في شكله الحالي . ومما يلحق بهذه النزعة ، قنوط الحكومة

الروسية في استقبال الشيوعيين الاجانب الذين يجيئون موسكو حجاجاً او لاجئين . ان معظم هؤلاء ، يرون في روسيا الحالية ، هيكل اخلاهم لا غير

اما اعدام المارشال توخاتشفسكي فلا يمكن ان يفسَّر تفسيراً معقولاً بما تقدم . والذين يعرفونهُ يؤكدون ان تهمة الخيانة والتواطؤ مع اعداء روسيا، وهي التهمة التي وجهت اليهِ رسميًّا عند محاكمته ، ليس لها ما تستند اليهِ . والراجح انهُ سلك سلكاً سيئاً اساءَ عليهِ وطنيتهُ . فالجفاء بين الحكومتين الالمانية والروسية الآن لا صلة لهُ بما بين الشعبين من تنافر في الذوق والطبيعة . ومردّهُ الى عداءٍ مفتعل بين الفاشستية والشيوعية . ومع ذلك ففي الريخسفهر ، في عهد الريخ الثالث اسوة بعهد الجمهورية ، فريق مع الاقطاب من رأيهم الاتفاق مع روسيا . وقد كان توخاتشفسكي في المنصب الذي يمكنهُ من فهم الخطر الذي يتعرض لهُ وطنهُ اذا اضطر ان يحارب دولتين عسكريتين عظيمتين في الشرق والغرب في آن واحد . ولعلهُ حاول حينئذٍ ان يتصل بذلك الفريق من الريخسفهر الذي يؤيد فكرة التفاهم مع روسيا ، بباعث من شعوره الوطني وادراكه للخطر الذي يحف بروسيا . وليس من المستحيل ان تكون مساعي من هذا القبيل منطوية على فكرة نزاعٍ داخلي او مؤامرة على ستالين . والواقع ان تطور روسيا الداخلي ، الذي وصفناه في ما تقدم كان قد انشأ جوًّا صالحاً لاحداث انقلاب على يد قائد كبير . ولو وقع هذا الانقلاب وعجل لكان من شأنهِ تعزيز النزعة القومية في روسيا . ولكن ستالين علم بما يدور فضرب ضربتهُ القاضية ، وباعدام توخاتشفسكي فقد الجيش الاحمر قائداً من اعظم قواده وأعظمهم جرأة

والآن — هل يطول حكم ستالين ؟ وهل يدوم حكم هتلر ؟ وهل تخرج اوربا سليمة بوجهٍ عام من حرب عالمية اخرى ؟ وهل ثمة امل ما في اجتناب هذه الحرب ؟ انها اسئلة من صنف واحد ، وهي متصلة بعضها ببعض اوثق اتصال . ومن اليسّر ان نحاول التنبؤ بما يقع في روسيا متعذّر ، ولا سيما وهي تجتاز ازمة داخلية عنيفة وتحولاً اساسيًّا بعيد المدى . وانما يمكن ان يقال ، ان ستالين قد عزز سلطتهُ بالقوة والبطش ، وانهُ لا ريب في انحرافه رويداً رويداً الى ناحية الطريق « البولشفي القومي » ، بضغط القوى الخارجية التي تهدد روسيا . والبادي للباحثين المجردين عن الهوى الآن ، ان دكتاتورية ستالين اقل تعرضاً للسقوط الآن من ارث لنين — ارث الشيوعية الخالصة والثورة العالمية

ان مقبرة لنين الفخمة لا تزال قائمة في الميدان الاحمر بموسكو . ولكن هل ينبعث منها الآن ، كما كان ينبعث في الماضي ، نور وحي قوي وايمان راسخ ؟ لقد علمنا التاريخ ، ان الاضاب كثيراً ما تفقد تأثيرها في النفوس بانقضاء قليل او كثير من الزمن عليها !